أَلنّصُّ القُرْآنِيُّ
دِرَاسَةٌ فِي ضَوْءِ المَنْهَجِ الشُّمُولِيِّ

م.د. عبّاس صادق عبد الصّاحب

كلّيّة التّربيّة الأساسيّة - جامعة المثنّى

فحوى البحث

يقوم هذا البحث على اساس النظر في النص القرآني، بصفته نصاً شمولياً، محيطاً بكل شئ وتبياناً لكل شيء. وقد تناول السيد الباحث فيه جملة من الموضوعات القرآنية، مطبقاً عليها هذا المنهج الشمولي في فهم النص الكريم، وضمن ستة مباحث هي:

- تعدد قراءة النص القرآني.
- ثراء النص القرآني.
- شمولية لغة القرآن.
- الظاهر والباطن في اللغة القرآنية.
- النص القرآني بين النثر والشعر.
- الصورة القرآنية.

وقد توصل الباحث الى رؤية مفادها: ضرورة قراءة النص في ضوء المنهج الذي يرشحه النص، لا حمل النص على منهج قد لا ينسجم مع منطلقاته.

المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم، وصلّى الله على محمّد وأهل بيته الطّيّبين

أمّا بعد:

فهذه مباحث تنطلق من رؤية قرآنيّة ذات شعبتين: الشّعبة الأولى النّظر إلى القرآن بصفته محيطاً بكلّ شيء، والشّعبة الثّانية النّظر إلى القرآن بصفته مبيّناً لكلّ شيء، وهذا الفهم أفدناه من القرآن نفسه عن طريق توظيف الآيتين الكريمتين: الأولى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، والثّانية ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

ومن هُدى هاتين الآيتين تمّت قراءة هذه المباحث، أي إنّ القراءة في هذه الصّفحات تنطلق من القرآن نفسه، من غير أن يُسقط الباحث على النّصّ القرآنيّ ما لا ينسجم مع ميله العامّ بصفته نصّاً في الهداية قبل كلّ شيء، كما عبّر القرآن عن نفسه أنّه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والهداية كما هو معلوم غير مقتصرة على جهة من جهات الكمال، فهي تشتمل على جهات الكمال جميعاً.

المبحث الأوّل:

تعدّد قراءة النّصّ القرآنيّ

لا يمكن أن نحدّد النّصّ القرآنيّ أنّه نصّ أدبيّ، أو نصّ فلسفيّ، أو نصّ علميّ؛ لأنّه لا ينتظم في أيّ صنف من هذه الأصناف الثّلاثة، على الرّغم من أنّه يضمّ هذه الأصناف الثّلاثة في داخله جميعاً، من أجل هذا تكون قراءة النّصّ القرآنيّ متعدّدة، لتعدّد الأصناف الموجودة فيه.

إنّنا نستطيع أن نقرأ النّصّ القرآنيّ قراءة أدبيّة متلمّسين مواطن الإعجاز في لغته، ونستطيع أن نقرأه قراءة فلسفية مستخرجين نظرته إلى الوجود، ونستطيع أن نقرأه قراءة علميّة على اختلاف أنواع التخصّصات العلميّة، ونستطيع أن نقرأه قراءة تجمع بين هذه الأصناف الثّلاثة معاً، من غيرأن نقسر النّصّ القرآنيّ على قراءة دون أخرى؛ لأنّ كلّ هذه القراءات المتعدّدة صحيحة ومقبولة ما لم تُسقِطْ على النّصّ ما لا يحتمله.

إنّ النّصّ القرآنيّ نصّ دينيّ مصدره الله سبحانه وتعالى وغايته إيصال الإنسان إلى الله، أي أنّ مصدره الكمال وغايته إيصال الإنسان إلى الكمال؛ لذلك عُدّ النّصّ القرآنيّ نصّ هداية كما صرّح القرآن بذلك قائلاً: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢].

والهداية غير مقصورة على جهة من جهات الكمال دون أخرى وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]، وقوله ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[سورة النّحل: ٨٩].

وإذا كان القرآن لا ينتمي إلى أيّ صنف من الأصناف الثّلاثة الّتي حدّدناها سابقاً، على الرّغم من أنّه يحتوي هذه الأصناف الثّلاثة جميعاً في داخله، فإنّنا نعدّ القرآن نصّاً لغويّاً بمعنى أنّنا لا يمكن أن نفهم القرآن إلا على أساس معطيات اللّغة الّتي نزل بها، وإذا أردنا الدّقة نقول: إنّنا لا نستطيع أن نفهم القرآن فهماً صحيحاً، أو نتذوّقه تذوّقاً صحيحاً حتّى نفهم ونتذوّق لغة العصر الّذي نزل فيه القرآن، ولعلّ ردود ابن عبّاس على مسائل وشبهات ابن الأزرق[1] خير دليل على ما نقول.

وقد ظهر الاهتمام باللّغة جليّاً عند المفسّرين المسلمين، وعلى الرّغم من تعدّد ثقافة المفسّر المسلم وتعدّد العلوم الّتي يحيط بها، فإنّه كان يتّخذ من اللّغة الرّكيزة الجوهريّة لفهم القرآن الكريم، وسنورد هنا أنموذجاً تفسيريّاً نتبيّن منه كيف استطاع المفسّر من خلال توظيف اللّغة أن يكشف عن المعنى الّذي يضمره النّص .

يقول الطّباطبائيّ في تفسير قوله تعالى:﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾[سورةالأعلى: ١٣]:«ثمّ للتّراخي

(١) ينظر: الإعجاز البيانيّ ومسائل ابن الأزرق (ت٦٥هـ)، د. عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨. وينظر: المنهج الأثريّ في تفسير القرآن حقيقته ومصادره وتطبيقاته، تأليف: هدى جاسم محمّد أبو طبرة، مطبعة مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، ط١، ١٩٩٤. ص٣٤-٣٥.

بحسب رتبة الكلام والمراد من نفي الموت والحياة عنه معاً نفي النّجاة نفياً مؤبّداً فإنّ النّجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إمّا بالموت حتّى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده وإمّا بتبدّل صفة الحياة من الشّقاء إلى السّعادة ومن العذاب إلى الرّاحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيّبة على حدّ قولهم في الحرض:«لا حيّ فيُرجى ولا ميّت فيُنسى»»[٢].

المبحث الثّاني: ثراء النّصّ القرآنيّ

لقد كثرت الأقاويل في مسألة تحديد وجه إعجاز القرآن الكريم، وكلّ من الدارسين نظر إلى زاوية تخصّصه، معتقدين بأنّ مسألة الإعجاز يمكن حصرها في مجال دون آخر، وفي ذلك يقول يحيى العلوي إنّ: «... الكلام في الوجه الّذي لأجله كان القرآن معجزاً، دقيقٌ، ومن ثمّ كثرت فيه الأقاويل واضطربت فيه المذاهب وتفرّقوا على أنحاء كثيرة»[٣]، متناسين قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]، وقوله﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[سورة النّحل: ٨٩].

إنّ القرآن الكريم نصّ له حقيقته الخاصّة، وهو لا يستمدّ قيمه من مصدر خارجيّ سوى مصدره الأوّل بصفته وحياً إلهيّاً، وهو مؤثّر لا متأثّر بنصّ آخر ويبتعد دائماً ولا يقترب مع أيّ نصّ سواه.

من أجل هذا يجب أن تكون دراسته دراسة خاصّة تستمدّ أصولها من النّصّ القرآنيّ نفسه، لا من نص ثانٍ، من الواقع الّذي أفرز هذا النّصّ، لا من الواقع الّذي لا تربطه به أيّة رابطة.

إذا كان القرآن الكريم يشترك مع النّصوص الأخرى في لغته، فإنّه يختلف معها في هذا الشيء أيضاً؛ لأنّ

(٢) الميزان في تفسير القرآن، العلاّمة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، منشورات الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢. ج٢، ص٢٦٩.

(٣) الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، طبع بمطابع المقتطف بمصر، . ج٣، ص٣٧٨.

لغة القرآن ليست كاللّغة في غيره من النّصوص، من ناحية ثرائها الشّكليّ والدّلاليّ، فالقرآن يفجّر الطّاقات اللّغوية كلّها، محوّلا الصّوت واللّفظ والسّياق والدّلالة من حالة الوجود بالقوّة إلى حالة الوجود بالفعل.

إنّ الأرض الّتي يتحرّك ضمنها النّصّ القرآنيّ واسعة، سواء أكان ذلك على المستوى الأفقيّ أم العموديّ، فعلى المستوي الأفقيّ ينفتح النّصّ القرآنيّ على كلّ الثّراء الموجود في العوالم المستقرّة واقعاً والمحتملة ذهناً، وعلى المستوى العموديّ يستنزّف الطّاقات المتوفّرة كلّها على صعيد الامتداد الزّمانيّ الرّحب: الماضي والحاضر والمستقبل، وإذا أردنا أن نستعمل لغة المنطق نقول إنّ النّصّ القرآنيّ يشتمل على القضايا: الذهنيّة والحقيقيّة والخارجيّة معاً.

إنّ النّصّ القرآنيّ بوتقة تنصهر في داخلها الأبعاد المكانيّة والزّمانيّة جميعاً، وكلّ هذا التّنوّع العجيب الّذي يأتلف في وحدة غاية في الانسجام، هو الّذي أعطى النّصّ القرآنيّ تفرّده وإعجازه.

يمكننا أن نعدّ القرآن الكريم كتاب الوجود الأشمل، وهو أقرب إلى المخلوقين من كتب المخلوقين انفسهم. وإذا كان المخلوق يفاضل بين الأشياء بقدر ما يحتاج هو إليها فإنّ حاجته إلى القرآن لا تنفد أبداً، وفي ذلك يقول الطّبرسيّ مفسّراً قوله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾: «أي بياناً لكلّ أمر مشكل ومعناه ليبيّن كلّ شيء يُحتاج إليه من أمور الشّرع، فإنّه ما من شيء يَحتاج الخلقُ إليه في أمر من أمور دينهم إلا وهو مبيّن في الكتاب»[٤].

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نردّد مع الأمام علي عليه السلام واصفين القرآن الكريم بأنّه هو الكتاب الّذي: «لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه»[٥].

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ. ج٦، ص٣٨٠.

(٥) تصنيف نهج البلاغة، لبيب وجيه بيضون، منشورات أسامة كرم، دمشق، ط١، د-ت، . ص٩٠-٩١.

المبحث الثّالث:

شموليّة النّصّ الفرآنيّ

إنّ من بين الأشياء الّتي تتميّز بها لغة القرآن هو شموليّتها، أي إحاطة التّعبير بالمعنى إحاطة تامّة من غير زيادة أو نقصان، وخير وسيلتين تستعين بهما لغة القرآن لتحقيق هذا المطلب هما: العطف والوصف.

فمن أمثلة العطف قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[سورة الرّعد : ١٥]. فقد استوفت هذه الآية الكريمة سجود الموجودات جميعاً، عن طريق استعمال الطّباق في السّماوات والأرض، والطّوع والكره، والغدوّ والآصال.

ولو اكتفت الآية بهذا المقدار لما استوفت حالات السّجود جميعاً، ولكان الوصف ناقصاً، واستعمال العطف في قوله تعالى: ﴿ وَظِلَٰلُهُم ﴾ هو الّذي جعل الآية محيطة بالمعنى المراد التّعبير عنه. فالشّيء لا يسجد وحده بل يسجد معه ظلّه أيضاً، وهذا أمر تلازميّ لم تغفله لغة القرآن.

ومن ذلك قوله تعالى﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٢]. الآية تصف قلوب الكافرين بأنّها كالحجارة أو اشدّ في قسوتها، واستعمال العطف في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ هو الذي جعل الآية قد استوفت حالات الموصوف الوجوديّة، فقلوب الكافرين كالحجارة؛ لأنّها لا تعقل، وأشدّ قسوة لأنّها خالية من الخير. أي إنّ القرآن يؤسّس واقعاً آخر غير الواقع الظّاهر الّذي ندركه بحواسنا.

إنّنا نتصوّر بأنّ الحجارة هي منتهى القسوة والصّلابة، لكنّ القرآن يؤكّد بأنّ قلوب الكافرين أشدّ قسوة وصلابة من الحجارة؛ لأنّ مقياسنا في ذلك ارتكز على جهة واحدة وأغفل الجهات الأخرى، بينما القرآن نظر إلى

الجهات جميعاً، ثمّ أصدر حكمه.

ويمكننا أن نتلمّس من الآية السّابقة اختلاط دلالة «أو» في قوله تعالى: «وأشدّ قسوة» بدلالة «بل»، أي إنّ السّياق أكسب «أو» معنىً جديداً.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[سورة النّحل: ٦٨]. الآية أحصت أماكن استيطان النّحل، وذكرت بأنّها تتركّز في ثلاثة أماكن هي الجبال والشّجر وما يبنيه الإنسان بيديه.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[سورة الرّوم: ٥٤]. فقد حدّدت الآية مراحل حياة الإنسان الّتي يمرّ بها في دنياه من غير زيادة أو نقصان .

أمّا استعمال الوصف فيظهر واضحاً في وصف القرآن للذّات الإلهيّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[سورة الحشر: ٢٢-٢٤].

فقد استوفت هذه الآيات جهات الكمال للذّات الإلهيّة، وهذا ما يؤكّد بأنّ لغة القرآن لها القدرة التّامة على وصف أخفى المعاني وأظهرها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[سورة الحديد: ٣]. إنّ استعمال الأوصاف الأربعة: الأوّل والآخر والظّاهر والباطن، جعل الآية مستغنية عن ذكر المزيد من الأوصاف؛ لأنّ هذه الأوصاف الأربعة شملت جهات الكمال جميعاً، فليس هناك شيء بعد الأوّل والآخر والظّاهر والباطن.

إنّ شموليّة لغة القرآن، عن طريق

إحاطة التّعبير بالمعنى، وقدرتها التّامة على وصف أخفى المعاني وأظهرها، مصداق لقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]، وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[سورة النّحل: ٨٩].

المبحث الرّابع:
الظّاهر والباطن في النّصّ القرآنيّ

لم يدرس هذا الرّبط بين الظّاهر والباطن في اللّغة القرآنيّة دراسة خاصّة تكشف بوضوح عن مقدار العلاقة بينهما؛ ولعلّ السّبب في عدم وجود دراسة مستقلة في هذا المجال يعود إلى أنّ البحث في هذا الموضوع يحتاج إلى إحاطة بالجانبين اللّغويّ والفلسفيّ مع تعمّق في مجال الكشف العرفانيّ .

وقد وجد مثل هذا النّوع من الرّبط بين الظّاهر والباطن في كتابات العرفانيين أمثال محيي الدّين بن عربي وصدر الدّين الشيرازي، لكنّ الّذي يغلب في كتابات هؤلاء العرفانيّين هو أنّ البحث في علاقة الظّاهر والباطن كانت تُتناول من ضمن الجانب المعرفيّ الّذي يتبنّاه العارف، وليس من ضمن الجانب اللّغويّ داخل النّصّ القرآنيّ نفسه، مع ملاحظة أنّ العارف الحقيقيّ لا يكشف الأسرار الإلهيّة جميعها، ضنّاً منه عليها، حتّى لا تذهب هذه المعرفة إلى غير أهلها؛ لذلك بقي الجانب الأكثر والأهمّ من هذه المعرفة مجهولاً لدى الباحثين.

إنّ الإنسان يدرك الجانب الظّاهر من الأشياء بفعل ما زوّد به من حواسّ، لها القدرة على إدراك السّطح الحسّيّ من الأشياء، أمّا الجانب الباطن فيبقى مجهولاً؛ لأنّ هذا الجانب لا يُتَوصّل إليه عن طريق هذه الحواسّ الظّاهرة؛ لذلك يبقى الإنسان في غفلة عن الجانب الباطن، كما ورد في قوله تعالى:﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الرّوم: ٧].

والجانب الباطن من الأشياء لا يُدرك إلا بأحد أمور أربعة هي: الوحي والكشف والحدس والموت. فأمّا الوحي «... فهو الإلهام وهو نوع من القذف في القلب في يقظة ونوم،

والوحي في كلامه تعالى لا ينحصر في وحي النّبوة»[٦]، كما قال تعالى: ﴿ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾[سورة النّحل: ٦٨].

وأمّا الكشف فهو «رفع الحجاب، وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني العليّة، والامور الخفية وجوداً وشهوداً»[٧].

وأمّا الحدس فهو «سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطلوب»[٨].

وأمّا الموت فهو تحرّر الرّوح من أسر الجسد للوصول إلى اليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[سورة الحجر: ٩٩]، وإتيان اليقين هنا يحدث بفعل الموت.

إنّ النّصّ القراني قد أحاط بالجانبين الظّاهر والباطن، والسّبب يعود إلى أنّ النّصّ القرآنيّ نصّ صادر من الذّات الإلهيّة التي أحاطت بكلّ شيء علماً، وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنّه ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[سورة الحديد: ٣].

إنّ الظاهر والباطن قد تكون بينهما علاقة العلّيّة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾[سورة النّساء: ١٠]، فالظّاهر هنا هو أكل اموال اليتامى ظلماً علّة للباطن وهو أكل النّار وتصلية السّعير.

وقد يكون الظّاهر هو الباطن نفسه بحسب اختلاف وجود الشّيء في عوالمه كما في قولة تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾[سورة الحجرات: ١٢]، فالظّاهر هنا الاغتياب هو الباطن نفسه وهو أن ياكل المرء لحم أخيه ميتاً بحسب اختلاف العوالم، وبمعنى آخر

(٦) الميزان في تفسير القرآن. ج٢، ص١٤٩.
(٧) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقّب بدستور العلماء، تأليف: القاضي عبد النّبيّ بن عبد الرّسول الأحمد نكريّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٥. ج٢، ص١٢٤.
(٨) جامع العلوم. ج٢، ص١٢٤.

إنّ الاغتياب له ظهوران ظهور دنيويّ وهو هذه الحقيقة اللّفظيّة الّتي تنال من الآخرين بظهر الغيب، وظهور أخرويّ وهو هذه الحقيقة التّي ياكل فيها المرء لحم أخيه ميتاً.

وقد يكون الظّاهر مطابقاً للباطن كما في قصّة ذبح إسماعيل قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾[سورة الصّافّات: ١٠٢-١٠٥]، فالظّاهر هنا وهو إرادة إبراهيم عليه السلام أن يَذبحَ ابنه إسماعيل عليه السلام وهو الباطن نفسه الّذي رآه إبراهيم عليه السلام في رؤياه؛ لذلك خاطب الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بقوله قد صدّقت الرّؤيا.

وقد يكون الظّاهر مختلفاً عن الباطن مع بقاء أوجه المشابهة بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾[سورة الحديد: ١٣]، فالسّور له باب وهذا الباب له باطن وظاهر، باطنه فيه الرّحمه؛ لأنّه يُؤوي المؤمنين، وظاهره فيه العذاب؛ لأنّه يُؤوي المنافقين، فالرّحمه تناسب الإيمان والعذاب يناسب النّفاق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[سورة الأنفال: ٤٣]، فالظّاهر هنا هو انتصار الرّسول صلى الله عليه وآله على المشركين، والباطن هو رؤية الرّسول صلى الله عليه وآله المشركين قليلاً، فرؤيه المشركين قليلاً تناسب الانتصار عليهم، رؤيتهم كثيراً تناسب انتصارهم

وفشل المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٤٦ -٤٩]. فالظّاهر هنا هو سبع سنين خصب يتلوها سبع سنين جدب، وهذا الظّاهر قد ناسب الباطن وهو سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وسبع يابسات، والاختلافهنا هو أنّه عبّر عن السّنة المخصبة بالبقرة السّمينة أو بالسّنبلة الخضراء، وعبّر عن السّنة المجدبة بالبقرة الهزيلة أو بالسّنبلة اليابسة.

ثمّ إنّ اللّغة القرآنيّة تتفرد بالكشف عن علاقات غير ملحوظة لنا مثل علاقة الاستغفار والاستقامة بنزول الغيث كما في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [سورة الجنّ: ١٦].

وكذلك علاقة الإيمان والتّقوى بفتح بركات السّماء والأرض، وعلاقة الكفر والعصيان بالأخذ بالعذاب كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٩٦].

المبحث الخامس:

النّصّ القرآنيّ بين النّثر والشّعر

يمكن أن ننفي كون القرآن نثراً أو شعراً عن طريق مقدّمتين: المقدّمة الأولى ننفي عن طريقها كون القرآن نثراً، والمقدّمة الثّانية ننفي عن طريقها كون القرآن شعراً.

والمقدّمة الاولى نعتمد فيها موقف الجاهليّين الّذين تلقّوا القرآن فوصفوه بأنّه شعر، ولم يصفوه بأنّه نثر، وقد ورد

ذكر ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٥]. وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[سورة الصّافّات: ٣٦]. وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾[سورة الطّور: ٣٠].

ولايوجد مبرّر لمشركي قريش بأن يصفوا القرآن أنّه شعر إلا أنّهم لم يجدوا هذا النّصّ يُشبه شيئاً من نثرهم، وإنّما هو أقرب إلى شعرهم. فإذا ما نفوا أن القرآن نثر، وجب أن يكون القرآن شعراً، بحسب ما تستلزمه (مانعة الخلوّ الموجَبَة)، اذا ما أردنا أن نستعمل مصطلحات المنطق؛ لأنّ الواقع بحسب نظرهم لا يخلو من أحدهما، فإمّا أن يكون القرآن شعراً أو نثراً. وحين نفوا إمكان أن يكون القرآن نثراً ذهبوا إلى عدّه شعراً.

والمقدّمة الثّانية نعتمد فيها القرآن نفسه، فقد نفى الله سبحانه وتعالى كون القرآن شعراً، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة يس: ٦٩]. وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[سورة الحاقّة: ٤١].

وللرّد على دعوى كون القرآن نثراً أو شعراً، نستعمل (مانعة الخلوّ السّالبة)، فنقول: ليس إمّا أن يكون القرآن نثراً أو شعراً، بمعنى أنّ القرآن ليس نثراً ولاشعراً، ويمكن أن يجتمع في داخله النّثر والشّعر في الآن نفسه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]، وقوله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[سورة النّحل: ٨٩].

إنّ القرآن لا ينتمي إلى أيّ من جنسي النّثر أو الشّعر، وقد ذهب طه حسين إلى: «... أنّ القرآن ليس نثراً، كما أنّه ليس شعراً، إنّما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمّى بغير هذا الاسم»[٩].

كما أنّ القرآن لايخلو من وجود عناصر مشتركة بينه وبين النثر من جهة،

(٩) من حديث الشّعر والنّثر، طه حسين، دار المعارف بمصر، ط١٠، ١٩٦٩. ص٢٥.

وبينه وبين الشّعر من جهة أخرى. واجتماع العناصر النّثريّة والشّعريّة في داخل النّصّ القرآنيّ هو الّذي حير المتلقّي في تحديد جنس النّصّ القرانيّ.

فالمتلقّي الجاهليّ الّذي امتلك ذوقاً لغويّاً عالياً لم يرضَ أن يصف القرآن أنّه نثر، وإنّما وجد فيه قرابة كبيرة من الشّعر؛ لأنّ الجاهليّ كان ينظر إلى الشّعر بوصفه أعلى استثمار لغوي ممكن.

أمّا المتلقّي المسلم الّذي آمن بالمعاني القرانيّة لم يسمح له إيمانه أن يُعبّر عن القرآن أنّه شعر، ولمّا أقصى المتلقّي المسلم كون القرآن شعراً، كان لابدّ من أن يعدّه نثراً، لكنّه نثر فنّي، وقد ذهب الى ذلك بعض الباحثين المحدثين[١٠].

إنّ النّصّ القرآنيّ يحتوي على عناصر فنّيّة مميّزة، وهذه العناصر الفنّيّه تربطه بالنّثر الفنّيّ مرّة، وتربطه بالشّعر المنظوم مرّة أخرى. فمن حيث العناصر الفنّيّة الّتي تربط النّصّ القرآنيّ بالنّثر الفنّي نجد أنّ النّصّ القرآنيّ يحتوي على أقسام النّثر الفنّيّ الثّلاثة: المرسل والمسجوع والموزون.

فمن أمثلة النّثر الفنّيّ المرسل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِۢبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِۢبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِۢبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ

(١٠) ينظر: عصر القرآن، محمّد مهديّ البصير، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط٣، ١٩٨٧. ص ٨ وما بعدها.

﴿ٱللَّهُ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٨٢]. في هذا المقطع القرآني نجد أنّه يخلو من فقرات مسجوعة أو موزونة.

ومن أمثله النّثر الفنّيّ المسجوع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [سورة الانفطار: ٦ -١٤]. نلحظ في هذا النّصّ أنّه يتكوّن من ثلاث فقرات مسجوعة، فالفقرة الأولى تنتهي بصوت الكاف، والفقرة الثّانية تنتهي بصوت النّون، والفقرة الثّالثة تنتهي بصوت الميم.

ومن أمثلة النّثر الفنّيّ الموزون قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾[سورة الطّارق: ٥ -١٤]. يمكن تحليل هذا النّصّ على أساس أنّه مقسّم على ثلاث فقرات موزونة الفقرة الأولى تنتهي بصيغة فاعل وتضمّ الكلمات الآتية: دافق، قادر، ناصر. والفقرة الثّانية تنتهي بصيغة فعائل وتضمّ الكلمتين الآتيتين ترائب، سرائر. والفقرة الثالثة تنتهي بصيغة فعل وتصمّ الكلمات الآتية: رجع، صدع، فصل، هزل.

ومن حيث وجود العناصر الفنّيّة الّتي تربط النّصّ القرآنيّ بالشّعر المنظوم نجد أنّ الفاصلة القرآنيّة أقرب ما تكون إلى القافيه الشّعريّة؛ لأنّ السّجعة في النّثر الفنّيّ لا تتكرّر في نهاية كلّ فقرة مثل ماهو الحال في القافية الشّعريّة الّتي يجب تكرارها.

ويمكن ملاحظة ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ

خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾[سورة الشّمس: ١ -١٥]. نلحظ في هذه السّورة القرآنيّة تكرار فاصلة واحدة تنتهي بالهاء المطلقة، ففي هذه الفاصلة القرآنيّة نجد الشّروط نفسها المفروضة على القافية الشّعريّة[١١].

أمّا الوزن الشّعريّ فمن الملاحظ أنّ القران الكريم لا يلتزم بوزن محدّد، لكنّه يضمّ في داخله الأوزان الشّعريّة السّتة عشر، بل الأوزان المستحدثة أيضاً، وقد كتب بعض الباحثين معجماً في ذلك[١٢].

وإذا كان النّصّ القرآنيّ قد احتوى في داخله على عناصر فنّيّة نثريّة وشعريّة، فان ذلك لايعني أنّه قد بقي في إطار هذين الجنسين الأدبيّين، وإنّما تجاوزهما تجاوزاً يمنعنا من أن ننسب القرآن إلى أيّ من هذين الجنسين.

نعم إنّ النّصّ القرآنيّ قد وجدت فيه عناصر جعلت بينه وبين النّثر الفنّي مشابهة من وجه ما، ووجدت فيه عناصر جعلت بينه وبين الشّعر مشابهة من وجه آخر، ولكن كان في مقابل هذه المشابهة خلاف بيّن، وقد جعل هذا الخلاف الفرق بين النّثر الفنّي والشّعر من جهة والقرآن الكريم من جهة أخرى فرقاً في النّوع لا في الدّرجة، وليس كما هو الحال في الفرق الموجود بين النّثر غير الفنّي والنّثر الفنّي والنّثر الفنّي والشّعر المنظوم. ويمكن أن نصف القرآن الكريم بالوصف الذّي وصف به الخالق جّل وعلا نفسه أنّه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشّورى: ١١] من الكلام نثره وشعره.

المبحث السّادس:

الصورة القرانيّة

إنّ الصّورة مقاربة بين طرفين،

(١١) ينظر: ميزان الذّهب في صناعة شعر العرب، أحمد الهاشميّ، مكتبة النّقاء، بغداد، ١٩٨٢. فصل القافية.

(١٢) ينظر: معجم آيات الاقتباس، صنع وترتيب: حكمت فرج البدريّ، دار الحرّيّة للطّباعة، ١٩٨٠.

أو تقريب شيء من شيء آخر؛ لذلك يكون جوهر الصّورة هو التّماثل دائماً، مهما كانت الصّورة مبنية على أساس التّشبيه أو الاستعارة او المجاز او الكناية، وتحليل أيّ صورة يقودنا إلى اكتشاف بنية تماثل مستبطنة فيها، وهذه حقيقة يدركها المعنيّون بهذا المجال؛ لأن الأشياء بينها نقاط افتراق وتماثل، والمبدع هو الّذي يكتشف نقاط التّماثل بين الأشياء، حتّى يتمكّن من الرّبط بينها. أي أنّ المبدع هو الّذي يتمكّن من اكتشاف الحدّ الأوسط الّذي يربط بين الحدّ الأصغر والحدّ الأكبر على صعيد إدخال الخاصّ في العامّ. وقيمة الصّورة تتأتى من قدرتها على التّقريب بين الأشياء، والتّقريب مفهوم مشكّك، فهناك شيء قريب وهناك شيء أقرب منه، وليس هذا فحسب، إنّما مع ملاحظة حالات التّقريب الحسّيّة والمعنويّة جميعاً.

والصّورة القرآنيّة دقيقة في ترشيح المشبّه به الأقرب الّذي يساعد على خلق صورة متكاملة، وترشيح المشبّه به يأتي من خلال مراعاة مدى التّماثل بين الطّرفين، والتّماثل إمّا أن يكون حسّيّاً أو معنويّاً، والمعنويّ إمّا أن يكون عقليّاً أو وجدانيّاً. وسنوضح من خلال الآيات القرآنيّة ما طرحناه في هذه المقدّمة.

يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧١]. شبّه الكفّار الّذين صدّوا أنفسهم عن القرآن ولم يفهموا منه شيئاً بالغنم الّتي لا تفهم ممّا يقوله الرّاعي إلا مدلوله العامّ الّذي يراد منه الزّجر أو البعث لأمر ما من دون مداليله الخاصّة، وهذا التّشبيه من قبيل تشبيه المعنويّ بالحسّيّ، وفي ذلك يقول أبو عبيدة:» إنّما الّذي ينعق الرّاعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم، تقول: كالغنم الّتي لا تسمع الّتي ينعق بها راعيها، والعرب تريد الشّيء فتحوله اليشي من سببه»[١٣]؛ لذلك

(١٣) مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنّى التّيميّ (ت٢١٠هـ)، عارضه

جاء التّعبير بقوله «إلا دعاءً ونداءً». أي أنّ الكفار لم يفهموا من الخطاب القرآني تفصيلاته، وأغلقوا على أنفسهم حتّى لا يدعوا مجالاً لكلمات القرآن أن تنفذ إلى قلوبهم لتعقل مداليل الكلمات وتتأثّر بها، فجاء التّعبير القرآنيّ: «صمّ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون»، فالصّمّ تعبير عن عدم استماع الكفّار لكلمات القرآن، والبكم تعبيرعن عدم السّؤال والمجادلة عن المعاني التّفصيليّة لأسرار الآيات القرآنيّة، والعمي تعبير عن عدم ملاحظة تأثير الكلمات في المستمعين إليها، ثم انعكاس هذا التّأثير في سلوك وأخلاق الفرد أو الجماعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [سورة مريم: ٤]، استعمل القرآن في هذه الصّورة الاستعارة المكنيّة فاستعار فعل الاشتعال إلى الشّيب: «فالمستعار الاشتعال، والمستعار منه: النّار، والمستعارله: الشّيب. والجامع بين المستعار منه والمستعار مشابهة ضوء النّار لبياض الشّيب»[١٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [سورة النّمل: ١٠]، شبّه حركة العصا حين تحوّلت إلى أفعى حقيقيّة بالجانّ، وهو من قبيل تشبيه الحسّيّ الّذي هوحركة العصا حين تحوّلت إلى أفعى بالمعنويّ الّذي هو الجانّ الذي لا يدرك عن طريق الحواسّ، وإنّما يُدرك عن طريق القوّة الواهمة الّتي تُعدّ من القوى العقليّة[١٥]. وفي ذلك يقول ابن ناقيا البغداديّ: «والمراد به أنّها في اهتزازها وخفّة حركتها وسرعتها كالجانّ وهي في صورة ثعبان»[١٦].

بأصوله وعلّق عليه الدّكتور فؤاد سزكين، مكتبة الخانجيّ، مصر، ط٢، ١٩٧٠. ج١، ص٦٣.

(١٤) الموسوعة القرآنيّة الميسّرة، تصنيف: إبراهيم الأبياريّ، مؤسّسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٤. ص١٦.

(١٥) ينظر: شرح المختصر لسعد الدّين التّفتازانيّ على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينيّ، في المعاني والبيان والبديع، منشورات دار الحكمة، قم، إيران، د-ط، د-ت. ج٢، ص ١٣.

(١٦) الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٤]، استعمل القرآن هنا الاستعارة المكنيّة فجعل للذّلّ جناحاً: «لأنّ المراد أمر الولد بالذّلّ لوالديه رحمة. فاستعير للولد أوّلاً جانب، ثمّ للجانب جناح، والحكمة في ذلك جعل ما ليس بمرئيّ مرئيّاً لأجل حسن البيان»(١٧).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[سورة البقرة: ١٦]، نسب الرّبح والخسارة إلى التّجارة بينما الرّبح والخسارة تكون للتّاجر، والصّورة القرآنيّة هنا يمكن أن تُحمل على المجاز العقليّ في نسبة الفعل إلى غير فاعله، او تُحمل على الاستعارة المكنيّة: «فإنّ المستعار منه، الّذي هو الشّراء، هو المراعى هنا، وهو الّذي رشّح لفظي الرّبح والتّجارة للاستعارة لما بينها من الملائمة»(١٨).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[سورة النّحل: ١١٢]، استعمل القرآن هنا الاستعارة المكنيّة فجعل للجوع والخوف لباساً وهذا من قبيل تشخيص المعنويّ، أي إبراز المعنويّ بصورة الحسّيّ، والمسوّغ لاستعمال اللّباس للجوع والخوف، هو أنّ الآخرين يغشيان الإنسان أي يبدو تأثيرهما على ظاهر الإنسان، فالإنسان الجائع يبدو للآخرين جائعاً بما يحمله وجهه من صفرة وجسده من نحول، والإنسان الخائف يبدو للآخرين خائفاً بما يبدو عليه من ذعر وقلق، فهذا البدوّ والظّهور للجوع والخوف مثل بدوّ وظهور اللّباس، فالإنسان الّذي

البغداديّ، تحقيق: د. مصطفى الصّاويّ الجوينيّ، منشأة المعارف، الإسكندريّة، مصر، ١٩٧٤. ص١٨١.

(١٧) الموسوعة القرآنيّة. ج٢، ص١٦.

(١٨) الموسوعة القرآنيّة. ج٢، ص ١٧.

يكتسي ثوباً يبدو للآخرين مكسوّاً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[سورة النّور : ٣٩]، شبّه أعمال الكافرين بالسّراب الّذي يظنّه السّائر في الصّحراء ماءً من شدّة ظمئه، وهو من قبيل تصوير المعنويّ الّذي هو العمل بالحسّيّ الّذي هو السّراب، وهو تلك الظّاهرة الّتي تُعدّ من قبيل الخداع البصريّ الّتي تظهر في الصّحراء. إنّ الكافر يتصوّر أنّ أعماله لها قيمة وقدر، ويبقى يوهم نفسه بهذا التّصوّر الّذي يتحوّل إلى تصديق أو جهل مركّب، فهو يجهل ويجهل أنّه يجهل، ثمّ يصطدم بالواقع الّذي غضّ الطّرف عنه حين يعود إلى الله سبحانه وتعالى، ويُدرك أنّ أعماله كانت بلا قيمة أو قدر، مثل حال السّائر في الصّحراء الّذي اشتدّ به الظّمأ فتوهّم السّراب ماءً، فهو حين ينظر إلى السّراب يجده ماءً مرّة ويجده سراباً مرّة أخرى، إلا أنّه أوهم نفسه أنّ ما يراه ماءً؛ لأنّه يريد أن يتشبّث بأمل فيخدع نفسه بتصوّر شيء لا وجود له حتّى إذا وصل إلى المكان الّذي رأى فيه السّراب لم يجد شيئاً فيسقط مجثيّاً عليه مستسلماً للويل والثّبور.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الإعجاز البيانيّ ومسائل ابن الأزرق (ت ٦٥هـ)، د. عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

٢- إعجاز القرآن. تأليف:القاضي أبي بكر محمد بن الخطيب الباقلّانيّ، علّق عليه وخرّج أحاديثه أبو عبد الرّحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨.

٣- الاتّجاه العقليّ في التّفسير دراسة في قضيّة المجازفي القرآن الكريم عند المعتزلة، نصر حامد أبوزيد، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط٦، ٢٠٠٧.

٤- التّفسير والمفسّرون، محمّد حسين

الذّهبيّ، مطبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط١ .١٩٦٠ .

٥- تصنيف نهج البلاغة، لبيب وجيه بيضون، منشورات أسامةكرم، دمشق، ط١، د -ت.

٦- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقّب بدستور العلماء، تأليف: القاضي عبد النّبيّ بن عبد الرّسول الأحمد نكريّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٥.

٧- الجمان في تشبيهات القرآن، ابن ناقيا البغداديّ، تحقيق: د. مصطفى الصّاويّ الجوينيّ، منشأة المعارف، الإسكندريّة، مصر، ١٩٧٤

٨- شرح المختصر لسعد الدّين التّفتازانيّ على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينيّ، في المعاني والبيان والبديع، منشورات دار الحكمة، قم، إيران، د -ط، د -ت.

٩- الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ، طبع بمطابع المقتطف بمصر.

١٠- عصر القرآن، محمّد مهديّ البصير، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط٣، ١٩٨٧.

١١- الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ، طبعة جديدة حقّقها وخرّج أحاديثها وعلّق عليها على نسخة خطّيّة عبد الرّزّاق المهديّ. دار إحياء التّراث العربيّ. بيروت. لبنان. ط٢ .٢٠٠١.

١٢- لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، تأليف: الأستاذ الدّكتور فاضل صالح السّامرّائيّ، شركة العاتك، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.

١٣- مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنّى التّيميّ (ت٢١٠هـ)، عارضه بأصوله وعلّق عليه الدّكتورفؤاد سزكين، مكتبة الخانجيّ، مصر، ط٢، ١٩٧٠.

١٤- مجمع البيان في تفسير القرآن،

الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.

١٥-معجم آيات الاقتباس، صنع وترتيب: حكمت فرج البدريّ، دار الحرّيّة للطّباعة، ١٩٨٠.

١٦-المنهج الأثريّ في تفسير القرآن الكريم حقيقته ومصادره وتطبيقاته، هدى جاسم أبو طبرة، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم، ط١، ١٩٩٤.

١٧-منهج النّقد في التّفسير، د. إحسان الأمين، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧.

١٨-الموسوعة القرآنيّة الميسّرة، تصنيف: إبراهيم الأبياريّ، مؤسّسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٤.

١٩-ميزان الذّهب في صناعة شعر العرب، أحمد الهاشميّ، مكتبة النّقاء، بغداد، ١٩٨٢.

٢٠-الميزان في تفسير القرآن، العلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، منشورات الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢.